قراءة تمهيدية لمشروع «محمد عابد الجابري» في نقد العقل العربي.

أ.بن عيسى خيرة

جامعة تلمسان

إن إشكالية الواقع العربي أو وضع الوطن العربي الثقافي والعلمي والسياسي والاقتصادي وغيرها من المجالات ، وسؤال النهضة وكيفية تجاوز التأخر ووضع بدائل وممكنات التقدم ، واستيعاب الحداثة في خضم الصراع القائم في الوطن العربي والعالم ومستجدات الحاضر ...،هي إشكالية جذرية تطرح نفسها باستمرار على العقل العربي.

وهو ما جعله يلتفت إلى ذاته ويراجع موقفه المعرفي والثقافي ، ويدرك أنه لابد للذات العربية أن تؤكد حضورها وتضع نفسها موضع مساءلة ومحاكمة ، وأن تقوم بدور المنتج والمصدر لا بدور المستهلك والمستورد أو المجانس ، وذلك وفق رؤية جديدة قائمة على النقد الموضوعي والحوار الفكري الجاد والمثمر ، بهدف الإسهام بشكل فعلي في نهضته.

النهضة أو الثورة أو الحداثة وحتى التقدم كلها مفاهيم وإن اختلفت في أصلها الاصطلاحي ،إلا أنها مثلت بحق الانشغال الأكبر الذي شغل الفكر العربي في عمومه ،سياسيا كان أو اجتماعيا أو اقتصاديا ...ولنقل في كل المجالات .

ورغم الدعوات المتعالية إلى تحقيق النهضة ...وجد العربي نفسه في صراع طويل ومرير مع واقعه ومعها ، ولم يستطع تحقيقا .

لماذا لم يتمكن العربي من تحقيق النهضة ؟سؤال وإن كان يبدو بسيطا إلا أنه قد يكشف عن السبب الذي يعيق تحقيقها ؟ أو ربما هي أسباب كثيرة ؟ .

ولا شك أن هذه الفكرة الأخيرة تحيلنا مباشرة إلى نخبة من المفكرين العرب ، الذين برزوا في محاولة منهم للبحث عن الأسباب وتقديم الحلول لها ،أو لإيقاظ العرب من سباتهم الفكري خاصة .

ونحن نتكلم عن هؤلاء إلا ويتبادر إلى أذهاننا أحد المفكرين العرب الذي أوكل إلى نفسه مهمة ثقيلة جدا وهي «نقد العقل العربي»[1] .

هي بحق مهمة تستحق التقدير لكنها تثير الخوف كذلك ،الخوف من الفشل أو بالأحرى

من أن تغدو هذه المحاولة مجرد حلم راود صاحبه يتبدد لحضة إستيقاضٍ في واقع الوطن العربي ، وهو واقع لا يخفى على أحد.

لا يجب أن تُفهم هذه الفكرة الأخيرة على أنها لحظة استسلام ، ولا على أنها تأكيد على فشل هذا المشروع النقدي ،بل على أنها طرح يستحق الوقوف عنده بكل جدية وتمعن .

هو المفكر المغربي «محمد عابد الجابري »[2] الذي سيكون محور هذا المقال وتجدر الإشارة إلى أن هذا الأخير لن يكون قراءة نقدية لمدى مشروعية المشروع النقدي ،أو إبراز الثغرات التي وقع فيها الجابري ، وإنما هي قراءة تحليلية لفكره وبالتحديد مسألة» مشروع نقد العقل العربي «– كما يسميه الجابري نفسه – في طرحه العام ، وقوفا عند مضامين الأجزاء الأربع من مؤلفات «نقد العقل العربي « الذي تتضح فيه معالم هذا المشروع بشكل صريح وواضح .

كما نجد تلميحات[3] «الجابري»لمشروعه في مؤلفات أخرى غير مؤلفات «نقد العقل العربي» ، منها سنبدأ الكلام عنه ، أهمها كتاب «نحن والتراث – قراءة معاصرة في تراثنا الفلسفي – « وكتاب «الخطاب العربي المعاصر – دراسة تحليلية نقدية–».

وعلى هذا الأساس سأقدم قراءة لهذين المرجعين بهدف الكشف عن الملامح الأولى والعامة لهذا المشروع ومن ثمة الكشف عن الهاجس الفكري الذي أثقل كاهل الجابري وأرقه – كما نستنتج ذلك من كلامه وهو يتحدث عن واقع الوطن العربي – ، هذا إضافة إلى أنني سألقي النظر على مضمون مؤلفات «نقد العقل العربي» في أجزائها الأربع .

فما هي الملامح العامة لهذا المشروع ؟، وما هي الآليات المعرفية والمنهجية التي يعتمد عليها «الجابري»؟، كيف يؤسس هذا المفكر لمشروعه ؟ وفق أي مادة معرفية يقرأ التراث ؟ مع أي ثقافة عربية يتعامل الجابري ؟وخلال ذلك كله من هو العقل الذي ينقده ؟ وكيف تتم عملية النقد هذه ؟

كما سأعمل على قراءة فكر «الجابري» كما هو قدر الإمكان دون الانحياز إلى أرائه ، والاهم من ذلك دون نقده أو إيراد الانتقادات التي ووجه بها هذا المشروع ، ونحن نعلم الضجة الفكرية التي أثيرة حوله لدرجة أنها أضمرت فكره ضمن سلسلة من المقالات والدراسات والتأويلات وحتى الحوارات التلفزيونية التي غيبت بحق وفي أحيان كثيرة حقيقة مصداقية الجابري في نصوصه.

وقراءات أخرى جعلت منه نبي هذه الأمة ومنقذها ، فكانت خالية حتى مما كان يدعو إليه «الجابري» نفسه أي خالية من النقد الذي يستوجب الموضوعية والمنهج الصحيح ، فساهمت بدورها في تغييب فكر الجابري وتغليب رأيها عنه.

هي إذا قراءة تحليلية أولية لفكر «الجابري» أو كما سميتها «قراءة تمهيدية لمشروع الجابري في نقد العقل العربي»، كما أشير أيضا إلى أنني سأُتبع هذا المقال بسلسلة من المقالات الأخرى التي أتناول فيها قراءة تحليلية مفصلة لكل جزء من أجزاء « نقد العقل العربي « وفي الأخير سأقدم دراسة نقدية موضوعية لهذا المشروع .

يقول «الجابري» في مقدمة كتابه «الخطاب العربي المعاصر» :»فان الواقع اليومي الذي يفرض نفسه علينا في الظروف الراهنة يجعلنا نشعر فعلا وكل يوم بأن شيا لم يتحقق ، أولم ينجز في هذه النهضة العربية ، وبالتالي نشعر بأننا لم ننجز بعد نهضتنا كاملة «[4].

يضيف قائلا :»قد يقرأ بعضنا هذا (الشيء) في الميدان الاقتصادي (الصناعة ،التشغيل)... وقد يراه آخرون في الميدان الاجتماعي(التغذية ،الصحة ،السكنى) ...وقد يقرؤه فريق ثالث في الحياة الثقافية (تعميم التعليم ، الرفع من مستواه، الإنتاج العلمي) ...وقد نجده جميعا في الكساح الذي أصاب سير أهدافنا القومية (تحقيق الوحدة ، أي نوع من الوحدة)...»[5]

يواصل الجابري حديثه قائلا:»ميدان واحد لم تتوجه إليه أصابع الاتهام بعد، وبشكل جدي صارم ،هو تلك القوة أو الملكة أو الأداة التي بها يقرأ العربي ويرى ويحلم ويفكر ويحاكم...إنه العقل العربي ذاته «[6].

لاشك أن هذه المقتطفات مما قاله «الجابري» في كتابه «الخطاب العربي المعاصر» لهي تعبير واضح عن إلتفاته إلى الواقع العربي ، ومن ثمة هي دعوة صريحة وعاجلة إلى ضرورة محاكمة الذات العربية لنفسها أو بالأحرى لعقلها.

هذا الأخير الذي اعتبره «الجابري» كمنطلق أساسي ومبدأ ضروري لنهوض العربي من سباته أو من حالة «الكساح» – كما يقول الجابري – إلى مواكبة التقدم الحاصل في الغرب وتحقيق النهضة.

ولعل ما يميز الجابري في كتاباته مرجعياته ومبادئه النقدية ، حيث بدأ دراسته من الواقع المعاصر باتجاه الغوص في التراث العربي الإسلامي بتشكيلاته ونظمه المعرفية وقيمه ومرجعياته ، محاولة منه كشف الستار عن الهواجس التي يعيشها العقل العربي في عدم إمكانيته من التعامل

مع التراث ، بل حتى من عدم قدرته على التأقلم والتجانس الصحيح مع الواقع [7].

وأول توجه له كان متمثلا في نقده للتيارات الفكرية المعاصرة بالتحديد في طريقة تعاملها مع التراث ، ونجد هذا النقد في كتابه «نحن والتراث – قراءة معاصرة في تراثنا الفلسفي– الذي نشره سنة 1980.

وهو الأمر الذي يؤكد أن بدايات التفكير في «نقد العقل العربي» كانت قبل التصريح عنها بشكل علني في الأجزاء الأربعة ، وهو الأمر ذاته الذي دفعنا إلى قراءة هذا الكتاب بهدف استنطاق مضامينه التمهيدية و الأولى في نقد العقل والتي بدأها بنقد القراءة السلفية للتراث والإستشراقية لينتهي إلى نقد القراءات اليسارية.

فالسلفية يقول عنها أنها حصرت التقدم في العودة إلى الماضي وإحيائه ، فالقراءة السلفية للتراث – كما يقول – هي «قراءة لا تاريخية ، وبالتالي فهي لا يمكن أن تنتج سوى نوع واحد من الفهم للتراث هو الفهم التراثي للتراث ، التراث يحتويها وهي لا تستطيع أن تحتويه :لأنها التراث يكرر نفسه «[8] .

فالسلفية أولت لنفسها مهمة الاهتمام بالتراث أكثر من غيرها ، إلا أنها لم تساهم في التجديد وترك ما هو تقليد، بل أدخلت هذا التراث في إطار «قراءات إيديولوجية سافرة « –كما يقول[9]– ، فهدا التيار لا يدرك حقيقة ما هو المعنى الصحيح المقصود من وراء التجديد وترك التقليد ، لذلك وقع العقل العربي في صراع مع الحقيقة ، فعلى العقل أن ينتبه لهذه الأخطاء الخطيرة التي ساهمت وتساهم في الوضع الذي آل إليه العرب .

فالسلفية وان كانت تتستر خلف غطاء الدين والأصالة والمحافظة على التراث ... والقائمة طويلة ، فذلك هو الذي أغشى عيون العالم العربي فراح يناصر ويؤيد دون رفض، والأخطر دون نقد .

كما أن «الجابري» في كلامه عن حقيقة هذا التيار يصحح بعض المفاهيم التي يرى بأنها يجب أن تتوضح ، وأنه على هذا العقل – أي الذات العربية – أن يميز بين الفهم السلفي لهذه المفاهيم وبين المعنى الحقيقي لها.

فهو يقول محاولا تصحيح معنى ترك التقليد وكذلك التجديد :»إن ترك التقليد يكتسي هنا معنى خاص ،إنه إلغاء كل التراث المعرفي والمنهجي و المفهومي المنحدر إلينا من عصر الانحطاط ، والحذر في ذات الوقت من السقوط فريسة الفكر الغربي ...أما التجديد فيعني بناء

فهم جديد للدين ، عقيدة وشريعة ، انطلاقا من الأصول مباشرة ، والعمل على تحيينه أي جعله معاصرا لنا وأساسا لنهضتنا وانطلاقتنا «[10] .

إن هذا الفهم الأخير الذي يضعه «الجابري» لا يتناسب تماما مع تعامل التيار السلفي مع التراث ، ولا حتى مع الدين ،لان السلفية كانت تضع التراث في الأول كأساس لا يمكن التخلي عنه لأي ظرف كان ،هذا إضافة إلى أنها لم تكن تخضعه للنقد ولا حتى التأكد من صحته وصدق مرجعياته ، فهي إذا لم تقدم شيئا سوى أنها فسرت التراث بالتراث نفسه ، و الأدهى أنها بنت المستقبل عليه ، مستقبل أسفر بقتل النهضة .

وليست السلفية وحدها ممن ساهم في قتل النهضة ، بل هناك قراءة أخرى يشير إليها «الجابري» ويعدد سلبياتها ونتائجها وهي التي يسميها «قراءة العربي اللبرالي» الذي قرأ التراث وفق حاضر غير حاضره ، فأفرغه من كل أصوله الحقيقية ، وأصبح بدلك التراث العربي الإسلامي مجرد تصور غربي أو كما يقول الجابري «قراءة أوروباوية النزعة «.

و هي ما يعرف بالقراءات «الإستشراقية» التي تدعي بأنها لا تستثمر سوى مناهج الغرب دون تقمص ذاتهم وحاضرهم في قراءة التراث العربي الإسلامي ،كما تدعي أنها تلتزم الموضوعية والحياد ما يكفي لفهم التراث .

لكن المتعمق بشكل نقدي موضوعي فيها سيكتشف أنها لم تستمد المنهج فقط من الغرب ، ولم تستثمر حتى ذلك المنهج استثمارا موضوعيا خالصا ، بل إنها مزجت المنهج الغربي بالرؤية الغربية ذاتها في فهمها للتراث فكل إدعاءاتها غير حقيقية ، لأنها مؤسسة على فهم التراث فهما غير صحيح .

وهذا من بين الأسباب التي دفعت «الجابري» إلى قراءة التراث قراءة جديدة ، تتجاوز القراءات السابقة بتقديم بديل يرى بأنه أنسب لفهم التراث فهما صحيحا ومؤسسا ، ومن ثمة تحقيق النهضة ، لان هذه الأخيرة تتوقف على طبيعة قراءة الذات العربية لتراثها .

وقبل الإشارة إلى ما يقترحه «الجابري «كقراءة جديدة ومغايرة ، هناك فريق آخر ممن قرأ التراث بطريقة غير صحيحة حسب «الجابري» ، وهو الذي يمثله «الفكر اليساري» الذي وقع ضائعا في محاولات جدلية هادفة في تصوره إلى تحقيق النهضة ، لكنها في الحقيقة كانت غير مجدية .

كما وقد وقعت هذه القراءة في إشكالية تطبيق المنهج ، فهو يقول عن هذا التيار أنه:»لا يتبنى – في تقديرنا– المنهج الجدلي كمنهج لـ (التطبيق) ،بل يتبناه كمنهج (مطبق) «[11]، وهو ما حوله كما يقول «الجابري» إلى»سلفية ماركسية «غير منتجة لأي نوع من الخطاب أو لأي قراءة مجدية للتراث العربي الإسلامي مساهمة في تحقيق النهضة .

هكذا ينظر الجابري لتيارات الفكر العربي الحديث و المعاصر ، و التي هي في أصلها قراءات سلفية تقرأ الحاضر والمستقبل وفق ما هو موجود في الماضي، هذا إضافة إلى عدم استقلالها الذاتي فكريا عن الغرب سواء من حيث المنهج أو الرؤية .

فالفكر العربي الحديث والمعاصر في تصور هذا المفكر هو:» في مجمله فكر لا تاريخي يفتقد إلى الحد الأدنى من الموضوعية ،ولذلك كانت قراءته للتراث قراءة سلفية تنزه الماضي وتقدسه وتستمد منه (الحلول) الجاهزة لمشاكل الحاضر والمستقبل «[12].

لذلك كان لابد من مسلك جديد لقراءة التراث وإحيائه ، وتحقيق الثورة ، وهو مسلك واحد وأولي ، ولا يتجسد مطلقا في مشكلة البحث عن المنهج المناسب والأحسن للتعامل مع التراث ، ولا في مسألة التراث نفسه ، بل يؤكد «الجابري» أنه قبل التفكير في هذا كله لابد من «نقد العقل» في حد ذاته ، وبالتالي نقد بنية العقل العربي في مجملها ، وهو ما يستلزم تجاوز طريقة التفكير التي تسربت إلينا بفعل التقليد ،أي «إحداث قطيعة إبيستمولوجية تامة مع بنية العقل العربي في عصر الانحطاط وامتداداتها إلى الفكر العربي الحديث والمعاصر «[13] .

لكن «الجابري» ينبه هنا إلى طبيعة هذه القطيعة ، فهي ليست قطع كل صلاتنا مع التراث ، بل هي قطيعة مع طريقة تناوله والتعامل معه ،أي نقد ((العقل)) وتحديث فعله وتهيئته كعقل جديد متحرر تماما من رواسب التفكير السابقة ، وبالتالي هي ليست قطيعة تفصلنا عن تراثنا وتبعدنا عنه ، وإنما هي تغيير طريقة التعامل مع التراث.

قد يتساءل البعض عن العلاقة بين التراث وبين النهضة ، و لماذا يركز الجابري على مسألة القراءات الحديثة والمعاصرة لهذا التراث ؟ ، ذلك لأنه يرى بأن العقل العربي لم يقرأ التراث قراءة صحيحة ، بل أنه فهم واقعه ومستقبله داخل هذا التراث ، فبدل أن يحقق النهضة حقق العودة إلى الماضي أو بقي فيه .

لم تقتصر تلميحات «الجابري» لمشروعه في نقد العقل العربي على كتاب «نحن والتراث «،بل نجدها كذلك في كتابه «الخطاب العربي المعاصر»–كما أسلفنا الذكر ، وطبعا كان كل توجهه إلى العقل الذي أنتج هذا الخطاب[14]، وذلك من خلال تقديم قراءة جديدة تعرض حالة

الخطاب العربي المعاصر و تكشف عيوبه ، أو- كما يقول - «إنها كشف وتشخيص للتناقضات التي يحملها الخطاب سواء على سطحه أم داخل هيكله العام سواء كانت تلك التناقضات مجرد تعارضات أو جملة نقائص «[15] .

«فالجابري» في كتابه هذا يريد إحداث الاختلاف عن طريقة وطبيعة قراءة الخطاب العربي المعاصر ، فهدفه ليس الكشف عن أبعاده الإيديولوجية ، ولا عن مضمونه المعرفي ، وإنما الكشف عما يحتويه هذا العقل من أخطاء وتناقضات من الداخل ، جعلته خطابا سلبيا ، يعبر بحق عن نوعية العقل الذي أنتجه ، أو بالأحرى كان هدفه معاينة علامات ((اللاعقل)) فيه ، وذلك وفق نقد إيبستمولوجي يتفادى بكل حرص وصرامة الجانب الايديولوجي .

وعلى هذا الأساس صنف الجابري الخطاب العربي المعاصر إلى أربعة أصناف ، وهي التي تجسدت بشكل واضح في كتابه المذكور سابقا ، و هي الخطاب النهضوي و الخطاب السياسي والخطاب القومي وفي الأخير الخطاب الفلسفي .

وهو يسعى من خلال هذا العرض الايبستمولوجي إلى محاولة الكشف أولا: عن تناقضات هذه الخطابات وهشاشتها من الداخل ، ومن ثمة تأكيد على ((لاعقلية)) العقل فيها ، وثانيا هي بمثابة تمهيد لمشروعه في نقد هذا العقل وضرورة استقلاله عن الانتماء للترسبات ((اللاعقلية)) التي علقت في قاعه.

والآن وبعد الإشارة بشكل مختصر إلى بدايات التفكير في نقد العقل العربي عند «الجابري» ،خاصة في كتابيه المذكورين سابقا ، سننتقل إلى قراءة ما ورد في الأجزاء الأربع من مؤلفات»نقد العقل العربي» ، وأكرر ما قلته في البداية من أن ذلك سيكون مقتصرا فقط على استنطاق نصوص «الجابري» وتحليلها كما هي دون الخوض في مسألة نقد هذا المشروع ، إضافة إلى أن قراءة هذه الأجزاء هي فقط كمقدمة تمهيدية لكل مؤلف ، تكشف عن مشروع الجابري فيها «لنقد العقل العربي» .

وعليه سنبدأ من حيث بدأ الجابري ، من كتابه «تكوين العقل العربي» ، وهو أول أجزاء مشروعة والذي يقول الجابري عنه أنه «استئناف النظر في تاريخ الثقافة العربية الإسلامية ، من جهة أولى، وبدء النظر في كيان العقل العربي وآلياته من جهة ثانية «[16] ، وكما يبدو من محتويات هذا الكتاب أنه قسمه قسمين :اشتمل القسم الأول على ثلاث فصول تناول فيها الجابري إحاطة شاملة أو كما يسميها هو «مقاربات أولية « لتحديد معنى العقل العربي وموقعه في الثقافة العربية ،كما أشار إلى مسألة بداية هذه الثقافة ، أو الاطار المرجعي لتكون العقل العربي، والذي

يرجعه إلى حسب تصوره ، وبعد عرض مطول لنشأة وتكون الثقافة العربية ، قلت يرجعه إلى عصر التدوين وهو العصر الذي «يفرض نفسه تاريخيا كإطار مرجعي لما قبله وبعده «-[17]كما يقول- .

في حين خصص القسم الثاني الذي اشتمل على تسعة فصول لعرض النظم المعرفية التي تقوم عليها هذه الثقافة من بدايتها أي منذ عصر التدوين -كما يحددها الجابري- ، وذلك وفق رؤية نقدية لمعالم هذه الثقافة في ترابط فروعها وانتمائها لبعضها البعض ، دون إهمال العلاقة بين الصراع الايديولوجي و الايبستمولوجي ،الذي كان له دوره الحاسم حسب «الجابري» في تكوين العقل العربي .

وقد اعتمد هذا المفكر في هذا الكتاب على ما يسميه « مسلكا تكوينيا « ، أي متابعة لتطور الثقافة العربية الإسلامية في مراحل تكوينها .

كما تجدر الإشارة إلى أن «الجابري» استعمل مجموعة من المفاهيم التي كان لها دور كبير في إثارة القراءات المتنوعة حولها والنقد والتأويل من طرف البعض ، وكذلك الاعتراف والتقدير من طرف البعض الآخر ، أهمها «العقل المستقيل» ، «الثقافة العربية الإسلامية (العالمة)» ، «المعقول واللامعقول»...

و»الجابري» كان توجهه في هذا الكتاب إلى تكون الثقافة العربية (العالمة) -كما يسميها – دون الالتفات للجوانب الأسطورية والخرافية والشعبية فهو يقول :»نحن لا نقف هنا موقف الباحث الأنتروبولوجي الذي يبقى موضوعه ماثلا أمامه كموضوع باستمرار ، إن موضوعنا ليس موضوعا لنا إلا بمقدار ما تكون الذات موضوعا لنفسها في عملية النقد الذاتي .

يواصل «الجابري» مشروعه في الجزء الثاني من «نقد العقل العربي» ، وهو المعنون بـ:»بنية العقل العربي – دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية- « الذي يبدؤه بمقاربات أولية يوضح فيها المفاهيم الأساسية المعتمدة ، كما حدد فيه النظم المعرفية التي اشتملت عليها الثقافة العربية ، وهو في هذا الجزء سيتولى مهمة تحليلها ونقدها.

ووفق ذلك جاء الكتاب على أربعة أقسام :القسم الأول خصصه للبيان محاولا من خلاله تحديد ماهيته معتمدا على المقارنة والتحليل ، وفي الأخير الاستنتاج بين ما ورد من علماء اللغة وهو يعرفه على أنه :» من جهة البيان(أصول) تتشعب عنها فروع ، ومن جهة ثانية البيان طريقة في التعبير مخصوصة وبالتالي (قوانين) وقواعد لتفسير الخطاب المعبر عن تلك الأصول المؤسس لها»[18].

لكن كان هذا فقط كمدخل يوضح من خلاله البيان، لأن هدفه كان يتجاوز مسألة تحديد المفهوم إلى مهمة الكشف عن مدى مساهمة هذا النظام المعرفي البياني في تكوين العقل العربي .

أما القسم الثاني فقد خصصه للعرفان الذي هو:»نظام معرفي ومنهج في إكساب المعرفة ورؤية للعالم ، وأيضا موقف منه ،انتقل إلى الثقافة العربية الإسلامية من الثقافات التي كانت سائدة قبل الإسلام في الشرق الأدنى وبكيفية خاصة في مصر وسوريا وفلسطين والعراق»[19] .

وقد عمد هنا «الجابري» إلى إبراز مجمل القضايا الأساسية التي جعلت منه نظاما ،هذا إضافة إلى الكشف عن الإبعاد الايديولوجية السياسية والدينية التي من خلالها وظفت النصوص الإسلامية والموروث العرفاني القديم خدمة لانتماءات مذهبية ودينية .

في حين أن القسم الثالث عنونه بالبرهان الذي يعرفه كما يلي:» كفعل معرفي فهو استدلال استنتاجي(مقدمات فنتائج تلزم عنها) وكحقل معرفي هو عالم المعرفة العلمية المنحدر إلى الثقافة العربية عبر الترجمة ،ترجمة كتب أرسطو خاصة»[20].

فقدم تصور عام عن البرهان الأرسطي، ولكن الهدف لم يكن عرضا لفلسفة أرسطو أو تعريفا لمنهجه ، بل لأنه – أي منهج البرهان الأرسطي- أحد النظم المعرفية الكبرى التي كان لها الأثر الكبير على الثقافة العربية الإسلامية .

كما أن الجابري حرص على تقديم الفكر الأرسطي على أصله ، بهدف «التعريف بطبيعة الفعل المعرفي المؤسس له»[21] و الكشف عن التغييرات التي طرأت عليه عندما دخل إلى الثقافة العربية أو بالأحرى تبيين «كيف تمت تبيئة هذا النظام المعرفي ((البرهاني)) في الثقافة العربية التي كان لها نظامها الخاص»[22].

ليخصص القسم الأخير لتفكيك هذه الأنظمة من أجل إعادة البناء من جديد، يضعنا الجابري من خلاله أمام مفهوم جديد وهو ما يسميه «بالبنية المحصلة» ، وهي ما تبقى من تلك النظم التي كانت في البداية لكل منها مجالها الخاص ميدانها ، فهي كما يقول : ليست «شيء آخر غير السلطات المعرفية التي تؤسس التفكير وتوجهه داخل الثقافة العربية الإسلامية ككل ، وإنما كانت ولا تزال تشكل البنية المعرفية اللاشعورية لهذه الثقافة «[23].

وهذه «البنية المحصلة» هي التي كونت العقل العربي بخضوعها لثلاث سلطات ، وهي سلطة اللفظ وسلطة الأصل وسلطة التجويز[24] ، لذالك كان العقل العربي خاضع لها في بنيته، فخلص الجابري إلى أن :»العقل العربي عقل يتعامل مع الألفاظ أكثر مما يتعامل مع المفاهيم ،

ولا يفكر إلا انطلاقا من الأصل أو انتهاء إليه أو بتوجيه منه ، الأصل الذي يحمل معه سلطة السلف ، إما في لفظه أو في معناه . وأن آليته ،آلية هذا العقل ،في تحصيل المعرفة – ولا نقول في إنتاجها– هي المقاربة أو (القياس البياني) والمماثلة أو(القياس العرفاني) ، وأنه في كل ذلك يعتمد التجويز كمبدأ،كقانون عام يؤسس منهجه في التفكير ورؤيته للعالم»[25].

كانت هذه أهم التصورات التي عرضها الجابري في بنية العقل العربي ،ولقد قدمناها في شكلها العام فما هي إلا تمهيد أولي لقراءة الكتاب.

وبعد هذا التتبع لمراحل تكوين العقل العربي متمثلا في الثقافة العربية الإسلامية مند بداية نشأتها الأولى، – أي من عصر التدوين– ، وذلك وفق قراءة نقدية للنظم المعرفية التي احتوتها هذه الثقافة في ترابطها وتفاعلها مع بعضها البعض ، انتقل بعدها «الجابري» إلى تحديد طبيعة بنية هذا العقل كما سبق وأشرنا ،لتتجه كل أنظاره في الجزء الثالث من مشروعه في كتابه الذي عنونه بـ:»العقل السياسي العربي – محدداته وتجلياته– «

ستكون قراءته في هذا الجزء موجه إلى الواقع أي إلى ممارسة الفعل السياسي ، وهي تختلف عن طبيعة القراءة السابقة في الجزأين الأول والثاني من «نقد العقل العربي» ، لأن الجابري عمد فيها إلى نقد الجانب المعرفي في الثقافة العربية الإسلامية .

أما في كتابه «العقل السياسي العربي» فهي قراءة تشريحية نقدية لهذا العقل السياسي مبينة لمحدداته وتجلياته[26] ، فهو كما يقول الجابري :»عقل لأن محددات الفعل السياسي وتجلياته تخضع جميعا لمنطق داخلي يحكمها وينظم العلاقات بينها ، منطق قوامه مبادئ وآليات قابلة للوصف والتحليل، وهو سياسي لأن وظيفته ليست إنتاج المعرفة بل ممارسة السلطة ،سلطة الحكم وبيان كيفية ممارستها»[27].

من هذا التصور الأخير الذي يطرحه «الجابري» ستكون قراءته النقدية للعقل السياسي وهي ليست تأريخا للنظم السياسية التي عرفتها الأمة العربية ، ولاهي البحث في مدى مشروعية نظام على آخر، ولا الوقوف عند مسألة من مسائل السلطة لمحاولة تحليلها ، بل إن مشروعه سيتجاوز هذا النوع من القراءات إلى مستوى آخر يكشف عن ممارسة الفعل السياسي في حد ذاته ، ومظاهر هذا الفعل وتطبيقاته على الواقع .

واستجابة لها المطلب جاء كتاب الجابري مقسما إلى قسمين ، تطرق في القسم الأول وبعد المدخل الذي عرض فيه مقاربات حول المنهج والرؤية [28]، قلت تناول فيه محددات الفعل السياسي ، لينتقل في القسم الثاني إلى تجلياته على الواقع .

لقد اعتمد الجابري في كتابه على مجموعة من المفاهيم المستمدة من الفكر العلمي والاجتماعي والسياسي المعاصر كمصطلح «اللاشعور السياسي» و«المخيال الاجتماعي»، وذلك لخدمة مشروعه ، لكنه يؤكد على ضرورة تبيئتها ، أي تهيئتها وفق خصوصيات موضوعه .

كما اعتمد على مجموعة من المفاهيم من التراث العربي الإسلامي وذلك بهدف إخراجها من المجال التراثي الذي يسيطر عليها وجعلها مواكبة لطبيعة التفكير المعاصر واهتماماته.

يختم «الجابري» مشروعة في نقد العقل العربي بكتابه « العقل الأخلاقي العربي» – دراسة تحليلية نقدية لنظم القيم في الثقافة العربية–».

بداية إن توجه «الجابري إلى «العقل الأخلاقي « هو :» لا كعقل فردي ،عقل هذا الفرد أو ذاك ،بل كعقل جماعي .كـ (نظام للقيم) يوجه سلوك الجماعة ،سلوكها الفردي الروحي،وسلوكها العملي «[29]

وفقا لذلك ينطلق في بداية هذا الكتاب من عرض حالة الإنتاج الفكري في مجال الأخلاق والتأريخ لها، وقد عدد مجمل الكتب الصادرة في هذا المجال ، وخلص إلى أن المكتبة العربية أو بالأحرى العالم العربي المعاصر لم يعرف نشاطا فكريا جديا في التأريخ للفكر الأخلاقي .

أما الكتابات حول الثقافة العربية الإسلامية فهي متوفرة ومتنوعة وجدية كذلك ، وقد استفاد منها كثيرا في إثراء كتابه «نقد العقل الأخلاقي» ،لكن الصعوبة واجهته – كما سبق وأشرنا– في مسألة الأخلاق ونظم القيم فيها، وهو ما دفعه إلى القيام –كما يقول– :»بمهمة مزدوجة ، القيام بدور المؤرخ الذي عليه أن يبحث عن المصادر أولا ثم نقدها وتقويمها وتصنيفها وبناء التاريخ على أسسها من جهة ، والقيام ثانيا بالتحليل والمقارنة والنقد والقراءة من جهة أخرى».[30]

وهو يحدد مجال بحثه ويقصي منه ما يسميه «بالأخلاق المطبقة» أي مجموع السلوكات والممارسات الأخلاقية في المجتمع والتي ترتبط بالعادات والتقاليد ،لان توجهه كان «الفكر الأخلاقي» أي ما احتوته هذه الثقافة من فكر أخلاقي يدعو إلى ممارسة سلوكات أخلاقية ما.

فقراءته ليست الأخلاق كما كانت في الثقافة العربية الإسلامية ، بل أوسع من ذلك بكثير لأنه كان يبحث في النظم الأخلاقية في هذه الثقافة ، وهي بالجمع لأنها تعددت داخلها «فالثقافة قد عرفت عدة نظم من القيم وليس نظاما واحدا»[31]، فجاءت هذه النظم متعددة لكنها شكلت بنية واحدة ،ساهمت في تعدد العقل العربي من حيث تكوينه ، لما وفد عليه من موروثات فارسية

وأخرى يونانية وصوفية،وبالطبع أيضا موروثات عربية إسلامية محضة[32] .

لقد كانت هذه مضامين مؤلفات الجابري من ناحية الكشف عن الملامح العامة والمقدمات الأولية التي يوظفها الجابري في مشروعه لنقد العقل العربي .

وبما أن قراءتي هذه جاءت تحليلية لفكر الجابري ، وهي في الوقت نفسه تمهيدية للولوج في هذا الفكر ، وكما أعلنت مسبقا سأتجنب الانحياز ، وأيضا النقد ، مع العلم أنني سأخصص المقال الأخير من سلسلة هذه المقالات لنقد هذا المشروع ، وأيضا لعرض بعض الانتقادات التي أرى بأنها بناءة ومنهجية .

ويمكن القول في الأخير أن «الجابري» في مشروعه هذا كان يرى بأن هذا العقل الذي لم يتمكن من تحقيق النهضة طيلة قرن من الزمن ، هو آلة معطلة يجب إصلاحها أو إعادة هيكلتها من جديد ، والنتيجة التي وصل إليها الوطن العربي لهي تأكيد على فساده وعدم صلاحيته .

فالمشكل حسب «الجابري» ليس في التراث كمادة معرفية ، بل في من يتعامل معه،- أي العقل-، فالأجدر قبل الدعوة إلى التفكير و القراءة والفهم ... ،لابد من معاينة هذا العقل إن كان قادرا على ممارسة هذه العمليات، وذلك بنقده هو في حد ذاته أولا ، ومن ثمة التفكير في النهضة ، فلا يمكن ل ((اللاعقل)) أن يحقق الثورة ، ويؤسس لمبادئ النهضة والتقدم .

إن هذا الكلام هو عام عما يقوله «الجابري» ،لان هذا الأخير سيعمق فكرة «نقد العقل العربي» أكثر في مؤلفاته ، وسيحيط بهذا العقل من كل الجوانب من حيث التكوين والبنية ، وكذلك الفعل السياسي والفكر الأخلاقي ،محاولا تشخيصه ومعاينة مواقع الضعف فيه وبتعبير «الجابري» ((اللاعقل)) فيه.

ربما تتبادر إلى أذهان القارئ أسئلة كثيرة حول هذا المشروع ، وهي ربما نفسها التي شغلتني حقا منذ بداية إهتمامي بفكر الجابري ، وهي الأسئلة التي سأضعها تحت نظركم وأختم بها المقال ،لكن ربما ستفتح شهيتكم – الفكرية طبعا- لقراءة الجابري ، والإجابة عنها فتكون لنا عونا ربما في نقد ذاتنا العربية الآن ،أو على الأقل تعديلها وتهيئتها . ولما لا؟

هل الجابري عندما تعامل مع التراث كان مخلصا لمشروعه ؟ أي هل نقد العقل العربي بالعقل العربي أم بالعقل الذي يحقق النهضة والذي كان يدعو إليه ؟ هل هناك حقا موضوعية في قراءاته ؟ وتحديث لفعل العقل؟ وهل تمكن من تحقق القطيعة بالطريقة التي كان يدعو إليها ؟ وفي الأخير هل كان كائنا تراثيا أم كائنا له تراث[33] ؟ .

قائمة المراجع :

1 – يعرف الجابري العقل العربي على أنه :"جملة المبادئ و القواعد التي تقدمها الثقافة العربية للمنتمين إليها كأساس لاكتساب المعرفة ، ويمكن أن نقول : تفرضها عليهم كـ ((كنظام معرفي)) ".أنظر كتاب الجابري ، تكوين العقل العربي ، الطبعة10 ، ص37.

2 – محمد عابد الجابري ولد بالمغرب في مدينة فكيك شرق المغرب ،سنة 1936 ، تحصل على شهادة الدراسات العليا في الفلسفة عام 1967 ،وعلى شهادة دكتوراه الدولة في الفلسفة عام 1980،شغل منصب أستاذ الفلسفة والفكر العربي الإسلامي في كلية الآداب بالرباط مند عام 1967، توفي بالدار البيضاء بالمغرب عام 2010.

له العديد من المؤلفات نذكر منها : نحن والتراث – قراءة معاصرة في تراثنا الفلسفي –" ،"مدخل إلى فلسفة العلوم–العقلانية المعاصرة وتطور الفكر العلمي–" ، "من أجل رؤية نقدية لبعض مشكلاتنا الفكرية والتربوية " ، "الخطاب العربي المعاصر" ، "تكوين العقل العربي " ، "بنية العقل العربي" ، "إشكالية الفكر العربي المعاصر" ، "وجهة نظر: نحو إعادة بناء قضايا الفكر العربي المعاصر:" ، "العقل السياسي العربي – محدداته وتجلياته–" ، "العقل الأخلاقي العربي– دراسة تحليلية نقدية لنظم القيم في الثقافة العربي – " ، "قضايا في الفكر المعاصر – « وغيرها.

3 – يقول في كتابه نحن والتراث – قراءة معاصرة في تراثنا الفلسفي– المركز الثقافي العربي ،الطبعة السادسة ،1993، بيروت. :»هذا النشاط الذهني جزء – ولو أنه أساسي – من كل : إنه جزء من بنية العقل العربي الذي يتعين فحصه بدقة ،ونقده بكل صرامة، قبل الدعوة إلى تجديده أو تحديثه.إنه لن يتجدد إلا على أنقاض القديم ،إلا انطلاقا من نقد شامل وعميق ، نرجو أن تكون لنا فيه مساهمة متواضعة من خلال الكتاب الذي نعده بنفس العنوان :نقد العقل العربي. أنظر ص19. ويقول كذلك في كتابه «الخطاب العربي المعاصر» ...وحددنا كذلك هدفنا من هذا العمل الذي أردناه أن يكون بمثابة تمهيد لمشروعنا الأساسي، مشروع (نقد العقل العربي) ،أنظر مقدمة الكتاب.

4 – محمد عابد الجابري ،الخطاب العربي المعاصر – دراسة تحليلية نقدية – مركز الوحدة العربية – الطبعة السادسة 1999، بيروت ،أنظر مقدمة الكتاب.

5 – المصدرالسابق نفسه ، أنظر المقدمة .

6 – المصدرالسابق نفسه ، يؤكد الجابري على الدور الذي يمكن أن يلعبه العقل في تحقيق النهضة وهو يعترف بأن هناك وعي بهده المرحلة من مراحل محاولة النهوض بالأمة العربية ، بل الأهم من ذلك يؤكد بان هؤلاء كانوا على وعي أيضا حتى بضرورة تهيئة العقل إلا أن كل هذا ما هو إلا مرحلة مبدئية أولية أُغفل فيها شيء مهم وهو نقد العقل في حد ذاته أو كما يسميه «سلاح النقد» لأنه كان لابد

قبل استعمال هذا العقل من نقده لأنه ما لم يخضع لهذه المرحلة سيغدو سبب الوضع الذي عاشه ويعيشه الوطن العربي

7 – الواقع الذي يقصده الجابري ليس واقع الوطن العربي بقدر ما هو واقع الغرب الأوربي أو كما يسميه في كتابه "نحن والتراث " ذات العصر كله"

8 – محمد عابد الجابري ، نحن والتراث – قراءة معاصرة في تراثنا الفلسفي– المركز الثقافي العربي ، الطبعة السادسة ،1993، بيروت ،ص13.

9 – المصدر السابق نفسه،ص12.

10 – المصدرالسابق نفسه،ص 12–13.

11 – المصدرالسابق نفسه ص15.

12 – المصدرالسابق نفسه ص19.

13 – المصدرالسابق نفسه ، ص20.

14 – الخطاب العربي المعاصر الذي يتكلم عنه الجابري هو مجموع الكتابات الصادرة عن المفكرين العرب بلغة عربية ،مستبعدا في ذلك كتابات المستشرقين حول القضايا العربية ، ومستبعدا كذلك الكتابات الصادرة عن المفكرين العرب بلغة أجنبية ،لأنها في تصوره ناتجة عن عقل غير عربي و خاضع لمرجعية ومفاهيم غير عربية كذلك ، ويحدد الجابري حتى الفترة التي يربط بها هذا الخطاب ، وهي الممتدة من منتصف القرن الماضي الى فترة الجابري .

15 – محمد عابد الجابري ،الخطاب العربي المعاصر،مذكور سابقا ، ص12.

16 – محمد عابد الجابري ،تكوين العقل العربي ،سلسلة نقد العقل العربي 1-- ،مركز دراسات الوحدة العربية ،طبعة 10، 2009، ص06.

17 – المرجع نفسه ،ص61. ويضيف قائلا «هو الإطار المرجعي الذي يتحدد به ما قبله(على مستوى الوعي العربي بطبيعة الحال) . فصورة العصر الجاهلي وصورة صدر الإسلام والقسم الأعظم من العصر الأموي إنما نسجتها خيوط منبعثة من عصر التدوين» ص62.

18 – محمد عابد الجابري ، بنية العقل العربي ، دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية ،الطبعة التاسعة 2009،بيرت ،ص24.

19 – المصدر السابق نفسه ،ص 253.

20 – المصدر السابق نفسه ،ص257.

21 –المصدر السابق نفسه ،ص556.

22 – المصدر السابق نفسه، ص413.

23 – المصدر السابق نفسه ،ص559.

24 – يعرف الجابري هذه السلطات الثلاث في كتابه بنية العقل العربي ، ص560-561.ونشير إلى أننا سنتطرق إليه في مقالنا حول القراءة التحليلية للأجزاء الأربع من نقد العقل العربي.

25 – المصدر السابق نفسه ، ص564.

26 – يقصد الجابري بالمحددات : هي ما يمكن أن تكون دوافع داخلية بيولوجية وسيكولوجية شعورية أولا شعورية ، وقد تكون تنبيهات أو تأثيرات خارجية . أما التجليات فهي المظاهر والكيفيات التي يتحقق الفعل فيها أو من خلالها أو بواسطتها . أنظر المدخل العام لكتاب نقد العقل السياسي .

27 – محمد عابد الجابري ، العقل السياسي العربي – محدداته وتجلياته – سلسلة نقد العقل العربي الجزء03 ،مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ،الطبعة الرابعة 2000 ،ص07.

28 – تجدر الإشارة هنا إلى أن «الجابري» في أغلب مؤلفاته وخاصة مؤلفات نقد العقل العربي ،كان يستهلها بمدخل عام أو كما يسميه مقاربات حول المنهج والرؤية يوضح من خلاله الإشكالية المطروحة في الكتاب ، كما يتناول مسألة المنهج بإسهاب ثم يحدد المنهج المعتمد في الدراسة .

29 – محمد عابد الجابري ،العقل الأخلاقي العربي ، دراسة تحليلية نقدية لنظم القيم في الثقافة العربية ، سلسلة نقد العقل العربي الجزء 04، مركز الوحدة العربية،الطبعة الاولى2001 ،ص23.

30 – المصدر السابق نفسه ،ص17.

31 – المصدر السابق نفسه ، ص22.

32 – الموروث العربي الخالص وينتمي إلى ما قبل الإسلام ، و يتمثل في الموروث العربي المدون في الجاهلية والإسلام.الموروث الإسلامي الخالص يتمثل في القرآن والسنة ،الموروث الفارسي والموروث اليوناني هما مجموع الثقافات الأجنبية التي ورثها الإسلام ،الموروث الصوفي ذو أصل أجنبي يدعي أنه الباطن والحقيقة .هذا اختصار لما ورد عن الجابري يمكن التوسع أكثر بالعودة إلى مؤلفه «العقل الأخلاقي العربي»

33 – يقول الجابري في كتابه نحن والتراث، ص21 :»اندماج الذات في التراث شيء واندماج التراث في الذات شيء آخر ،أن يحتوينا التراث شيء ، وأن نحتوي التراث شيء آخر،...إن القطيعة التي ندعو إليها ليست القطيعة مع التراث ، بل القطيعة مع نوع من العلاقة مع التراث ، القطيعة التي تحولنا من ((كائنات تراثية)) إلى كائنات لها تراث «